مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (5)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (5) 2010

برتراندرسل وموقفه الفلسفي من الحرب

الدكتور غسان علاء الدين*

(تاريخ الإيداع 21 / 7 / 2010. قبل للنشر في 5 / 12 / 2010)

□ ملخّص □

يهدف البحث إلى الوقوف على رأي رسل في أسباب قيام الحروب والدوافع التي تقود البشر إلى إذكاء نار التعصب وكره الآخر ، الأمر الذي سيدفع بالضرورة إلى الحرب عليه وقتاله ، وهو مايعني التعدّي على حياته وحقه في الوجود الذي هو حق طبيعي ومكتسب لكل إنسان .

وقد رفض "رسل" بهذا السياق الحروب ودعى إلى نبذها ، لأنه رأى فيها أسباباً ظالمة تمنع البشر من أن يلتقوا على صعد المحبة والإنسانية . كذلك اعتبر أن الفقر إضافة إلى الحرب قد تكون من بين الأسباب الرئيسية التي تسلُب البشر حياتهم وتهدد وجودهم

الكلمات المفتاحية: الحرب، الوجود، الحرية، الفقر، الحق، تعدّي، مقاومة.

* مدرس – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (5)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (5) 2010

Russell's Idea of War

Dr. Ghassan Ala Aldeen*

(Received 21 / 7 / 2010. Accepted 5 / 12 / 2010)

□ ABSTRACT □

The aim of this article is to investigate Russell's view which account for the deep reasons of wars and disputes between the states and nations. Also, we will try to signify the veiled motives which lead the human beings to hate, assault and aggress each others. This means, we will try to present the reasons which make the human beings, according to Russell- violate the life and the natural existence of others.

Also, we will try to examine the reasons and motives of war in their relations with the concept of power, because, according to Russell, if this concept avails in the hands of any state, it will be the sufficient reason to wage war against any other state. These kinds of wars are considered by Russell as unjust wars that seek to occupy the land and properties of others.

Keywords: War, Being, Freedom, Power, Right, Assault, Resistance.

***Assistant Professor, Department of philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**

مقدمة:

الحرب حالة لا إنسانية معادية لروح التمدن والحرية ، لأنها تهدف إلى انتزاع الحياة من الإنسان ذاته ، والقضاء على وجوده. إنها حالة بدائية تقف عند حدود الغرائز والرغبات والمصالح لتسلب الإنسان روح الإبداع والفاعلية ، وتجرده من كرامته إذ تعمل على إفنائه وإبادته تحت حجج ومسوغات واهية وباطلة.

من هنا ليس بمستغرب أن نجد بعض الفلاسفة يكرهون الحرب ويقفون في وجهها ويتصدون لأولئك الداعين لها مادامت رسالتهم هي الدفاع عن الإنسان بما هو ذات يستحق الأحسن والأفضل على الدوام .

في هذا السياق نقرأ موقف الفيلسوف "برتراندرسل" الذي أحب الإنسان ودافع عنه وعدّ كل تعدٍ على الحياة تعدياً على كرامه الإنسان وحريته . كما نقرأ كذلك وجهة نظره في الدوافع والمسوغات التي تقف وراء قيام الحروب بوجه عام ،لأننا ضمن هذا المنحى نقف على تمييز "راسل" مابين حروب ظالمة يفرضها القوي على الضعيف من غير وجه حق ، وحروب عادلة وهي التي تخوضها الشعوب دفاعا عن أرضها وحقوقها كما هو الحال اليوم في كفاح الشعب الفلسطيني ضد العدو الإسرائيلي الغاشم الذي يحتل الأرض وينتهك الحرمات .

كما نتعرف –إضافة لذلك– على قضية تبدو على غاية من الأهمية، وهي التي تتعلق بوجهة نظر "راسل" الفلسفية بما أسماه دوافع الملكية والتسلط التي رأى فيها أسبابا جوهرية لاشتعال الحروب وقيامها ، مادامت كل دولة تسعى لامتلاك القوة والسلطان عن طريق السلاح والعتاد الذي لابد أن يؤدي امتلاكه بالضرورة إلى قتل الآخر وتدميره ، وفي أحسن الأحوال لإذلاله والحط من شأنه . وهو مالا يجد "راسل" علاجا له مالم تقتلع أسباب الحروب نهائيا من أعماق الحكام والقادة . وهو ما يجب على التربية الحسنة والسليمة للأفراد والشعوب أن تقوم به من خلال الإعلاء من شأن الحياة ذاتها ، تلك التي تعلو فيها كرامة الإنسان وتسمو روحه .وما لم يتم ذلك لن يجد الإنسان أمامه سوى الاستبداد والمظالم التي تنتج عن استخدام القوة السافرة التي تحرم الإنسان في حال انتشارها من العيش الكريم .

فلو انعدمت الحروب – وهو ما يرى راسل استحالته– أو اختفت أسبابها إلى غير رجعة لانفتحت أمام الإنسان دروب الحرية والإبداع ، ولتسنى له بذلك أن يكوّن ذاته بالتمام والكمال لأن الإنسان الذي لايكون ذاته سيظل على الدوام يعيش الخوف والعزلة والقلق ، الأمر الذي يدفع به إلى التعصب الأعمى وكره الأخر والارتماء بالتالي في أحضان جماعات متشددة تضغط على الحكام وقادة الدول لإزكاء نار الحروب تحت حجج ومسوغات قد تبدو للوهلة الأولى أنها تدافع عن حقوق الإنسان والديمقراطية والعدالة في أمكنة قصيّة من العالم، لكنها في حقيقة الأمر تمثل بحد ذاتها الاعتداء الحقيقي على حقوق الإنسان والمواطن في أية بقعة من بقاع الأرض.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية البحث في التعّرف على موقف فيلسوف كان له بالغ الأثر في العالم المعاصر فيما قدمه من أفكار وطروحات فلسفية دحض بموجبها جملة المسوغات والأسباب التي قدمتها بعض الحكومات والدول لتبرير قيامها بالحروب والاعتداء على الغير . وقد بين "رسل" أن أحد الأسباب الدفينة والعميقة ترجع إلى أعماق البشر أنفسهم أولئك الذين يبحثون عن مصالحهم ومنافعهم وتحقيق غاياتهم من غير نظر إلى ما في ذلك من تعدّ على الإنسان وهدر لحقوقه الطبيعية .

غير إن راسل لم يتوقف عند ذلك فقط ، وإنما بين أن الدفاع عن المصالح والمنافع لايعني في حقيقة الأمر إلا الدفاع عن استخدام القوة والعنف في مواجهة الأخر. وهو ما يعني بالضرورة أن كلّ ممارسة للعنف لا بد أن يعقبها عنف آخر،الأمر الذي يحيل العالم إلى مسرح حرب ويحّول البشر إلى قطعان ذئاب يفترس بعضها بعضاً.

كما يهدف البحث إلى إعادة إنتاج مواقف ووجهات نظر "راسل" فيما يتعلق بما كان يراه حروباً عادلة وحروبا ظالمة، لعلّنا نستطيع اليوم أن نصوغ بعض المفهومات والمصطلحات التي تداخلت عند الكثيرين من البشر واختلطت حتى أصبحوا يرفضون كل شكل من أشكال الحروب، الأمر الذي أدى إلى المساواة بين المقاومة ضد المحتل والغاصب ، وبين العدوان الذي يشن على الشعوب المسالمة بهدف احتلال أراضيها ، واستغلال خيراتها، تحت مبررات وشعارات براقة كما فعلت أمريكا عندما احتلت العراق مدّعية أنها جاءت لتحرير الشعب العراقي من حكامه المستبدين ، فاستعاضت عن استبداد باستبداد أشد وأعنف .

فأهمية البحث إذاً تكمن في إظهار السياق الذي وردت فيه أفكار راسل عن الحرب بغية الإعلاء من شأن حالة المقاومة التي رآها راسل حالة مشروعة ومنطقية تستحق الاحترام والتقدير .

منهجية البحث:

إن المنهج المستخدم في بحثنا هذا هو المنهج النقدي الفلسفي الذي يسعى إلى تحديد المفاهيم والمصطلحات، والوقوف على تخومها في إطار ارتباطها بظروف العصر الذي أنتجت في سياقه . لأنه مالم يتم فعل ذلك ستبقى المصطلحات والمفاهيم المستخدمة غامضة لاتقدم المعنى الدقيق لما ذهب إليه فيلسوف كـــ "رسل" كان يريد أن يعيد صياغة مفاهيمه في إطار مذهبه الفلسفي والأخلاقي والسياسي وقناعاته التي آمن بها ودافع عنها بحماسة كبيرة طيلة حياته .

لكن هذا لايعني أننا سنعمل على إعادة تفكيك طروحات "راسل" ومفاهيمه بغية إعادة إنتاجها من جديد كي تصلح للاستخدام من جديد في سياق زماني ومكاني مختلف عن ذاك الذي أنتجت في أهابه. وإنما همنا هو تفنيد ونقد آراء ووجهات نظر فيلسوف بقامة "راسل" كان في يوم من الأيام من مؤيدي أمريكا في ضربها لـــ "ناغازاكي" وهيروشيما بالقنبلة الذرية . لكنه بعدما شاهد آثار الحرب وتدميرها كل شيء عدل عن موقفه وانبرى للدفاع عن السلم العالمي ومناهضة الحرب بكافة ألوانها وأشكالها إلا تلك التي تخوضها الشعوب دفاعاً عن ممتلكاتها وأعراضها التي اعتبرها راسل حروباً عادلة ومشروعة بكل المقاييس والشرائع .

1- "رسل" يبيّن أثر الحروب ومساوئها.

لم يكن "رسل" رياضياً بارعاً تصدى لأعقد المسائل الرياضية والمنطقية، وأبدع العديد من الكتب الهامة فحسب، بل كان إلى جانب ذلك مهتماً بمعالجة القضايا الاجتماعية والسياسية التي واجهت الإنسان في القرن العشرين –على اختلاف جنسه ولونه وعقيدته– وهو يعايش أحداث حربين عالميتين سببتا له من الآلام والمصائب ما جعله غريباً عن نفسه وعصره وإنسانيته .

لقد رأى راسل بأم عينيه المآسي والآلام الذي تسببه الحروب التي يخوضها الإنسان من أجل مزيد من إرادة القوة والسيطرة والتفوق، فآثر أن يصرف جهده ووقته لكي يبين مساوئ الحروب وفظائعها، ويعمل –ما أمكن– على إقناع الرأي العام وقادة الدول والحكام بضرورة نبذها والامتناع عن اللجوء إليها كحل للمشكلات مع الدول الأخرى.

وهو ماكان واحداً من جملة الأسباب التي دفعته بمحض خياره إلى هجر الرياضيات والمنطق تسانده في هذا الاختيار دوافع إنسانية متنوعة قادته للتساؤل عن جدوى أن يبدع المرء في ميادين الرياضة والمنطق ويبذّ غيرة من العلماء والثقات مادامت ستأتي الحروب وتنسف ما أبدعه أولئك العلماء والفلاسفة في تلك المجالات من نظريات، وما قدموه من مفاهيم وأفكار .

آمن رسل بضرورة أن تعود الأعمال الفلسفية التي ينتجها ويفكر بها بالخير والمنفعة والفائدة على الإنسانية جمعاء ، الأمر الذي دفعه كي يقبل عليها بمحض إرادته وحريته . من هنا وجد أن الوقوف بوجه الحروب والبحث في أسبابها ودوافعها من جهة ، ومواجهة المخططين لها والقائمين بها من جهة ثانية، قد يكون من أنجع الطرق كي يتحقق مايصبُو إليه . لهذا نراه يتنقل من بلد إلى آخر رافعاً راية السلم من أجل أن يوضح للقادة والحكام مخاطر الحروب التي يشنونها، ويأخذ عليهم تلك النزعة الهمجية التي تعتمل في داخلهم ، فتمنع عنهم رؤية السلام الداخلي الذي ينبغي أن ينعم به البشر على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وهو ماذهب إليه حينما قال في كتاباته : "إن الحرب العالمية الأولى قد أثّرت في مقدرات حياته فجعلته يوجه اهتمامه إلى السياسة، بعد أن كان اهتمامه قاصراً على دراسة المنطق الرياضي. فقد جعلته الحرب يركز فكره على المشاكل الإنسانية والاجتماعية، ويسعى للوقوف على أسباب الحروب في محاولة التوصل إلى طرق قيامها. مع أنه يعترف بمقدار العقبات التي واجهته أثناء قيامه بذلك، ويعترف صراحة بأن النجاح الذي أصابه في هذا المجال أقل بكثير من النجاح الذي سبق له أن أصابه عندما توفر على دراسته المنطق الرياضي. ويعزو فشله بذلك إلى أن نجاح الدعوى في هذه الأمور يعتمد على حث الناس والتأثير فيهم. وهذا ما لم يساعده فيه تأهيله ومرانه السابق"[1].

وجد "رسل" نفسه يعيش في عالم معادٍ لكل نزعة إبداع يسعى الإنسان لخلقها في المجتمع الذي يحيا فيه من أجل القيام بأفعال منتجة لكل ما من شأنه أن يعلي من كرامة البشر، و يعزز الشعور بالملكية الفردية، ويدفع الناس للاعتداد بها . تلك الملكية بالذات هي ما يعتبره رسل مصدراً لكل الشرور والآلام التي تعاني منها البشرية، وهو ماجعله يرى في العالم الذي نعيش فيه عالماً مختلفاً عن العالم المأمول أو الذي نبحث عنه. وكأن البون شاسع والتناقض كبير بين ما يأمل الإنسان بتحقيقه، وبين ما يعيشه أو يستطيع تحقيقه بالفعل. "إن العالم الذي ينبغي أن نبحث عنه عالم تعيش فيه الروح المبدعة، وتكون الحياة في ظلاله مغامرة مليئة بالمرح والأمل؟، عالم يقوم على باعث التعمير، لا على الرغبة في الاحتفاظ بما نملك أو الاستيلاء على ما يملكه الغير، عالم تقوم فيه المودة بدور حر، ويتطهّر الحب من غزيرة السيطرة وتطرد السعادة والغرائز المتحررة القسوة والحسد".[2]

إن دَافِعي الملكية وحبّ التسلط كما يعتقد "راسل" يمنعان الإنسان من الوصول إلى العالم الذي يأمل أن يتحقق فعلاً، الأمر الذي يفضي به لمعاداة ذاته ومجتمعه ويدفع به كي يجد في الحرب الوسيلة الأساسية لإرضاء نزعاته وغروره. وعلى عكس ذلك تماما يكون التحرّر من الملكية، والتعبير عن روح المحبة والتواصل مع الإنسان شروطا ضرورية وهامة للوصول إلى صورة عالم كان يأمل رسل أن يجده يوماً ما وقد تحقق بالفعل وسمت فيه كرامة الإنسان ، ونال حريته. " فالعالم الذي نعيش فيه الآن يهدف إلى أغراض السيطرة، والقوة والتفوق، والزهو

[1] – رمسيس عوض. برتراندرسل الإنسان، . بيروت : الجامعة الأمريكية ، 1975، ص 49.

[2] – برتراندرسل. طرق إلى الحرية. القاهرة : طرق إلى الحرية ، ترجمة: عبد الكريم أحمد ، القـاهرة: مطبعـة الصـاوي ، د. ت ، ص 236.

ولكنه لن يدوم طويلاً وإنما سيبزغ من بين حطامه عالم حديث أشد فتوة يفعم الأمل الجديد قلبه، ويشرق نور الصباح في عينيه".[3]

وعلى ذلك فإن قراءة راسل قراءة متعمقة ومتأنية لابد أن تُعرفنا على وجهات نظر متعارضة ومتناقضة فيما يخص فكرة الحرب والدلالات التي ترمي إليها . فمرة يراها تعبيراً عن نزعات داخلية تخفق في داخل الإنسان. ومرة يراها وسيلة للوصول إلى السلطان والقوة. ومرة ثالثة يرى فيها شكلاً من أشكال التسلط والغلبة. ومرة رابعة ربما تكون الحرب وسيلة لغايات أخرى ، وقد تكون مرة خامسة غاية بحد ذاتها و تعبيراً عن نزعة داخلية تعتمل في داخل أعماق الإنسان . فهي كغيرها من "ألوان النشاط الإنساني، لا تدور رحاها في أغلب الأحيان بسبب ما يصبو إليه مثيروها من مطامع، بقدر ما تثيرها نزعتنا إلى الحرب نفسها. ففي كثير من الأحيان يطمع الإنسان في شيء لا طمعاً في الشيء نفسه، ولكن بسبب ما في طبيعته من ميل إلى الأعمال التي تؤدي إلى هذا المطمح".[4]

2- الحرب باعتبارها نزعة فطرية عند رسل .

فنحن إذاً من وجهة نظر "راسل" لا نستطيع أن نكبت شهوتنا إلى الحرب لأنها تصدر عن نزعة أكثر مما تصدر عن حسن تقدير للمنافع التي نطمح في أن نستخلصها منها. " فمعظم الناس تنطوي طبيعتهم على قدر معين من الشر، ولا يترددون في إيذاء الآخرين إذا أمِنوا العواقب ... فالتنافس متأصل بعمق في الطبيعة البشرية كما نعلم."[5]

غير أن تلك النزعة المتأصلة في أعماق النفوس لن يتسنى تهذيبها وتوجيهها نحو خير الجنس البشري ومنفعته مالم تتدخل التربية التي يكون "هدفها حرية الاختيار بدون تدخل خارجي . "[6] ولكن ماذا لو لم تُتح للإنسان مثل هذه التربية في طفولته ؟ هل يقف مكتوف اليدين وهو يرى الحرب تشتعل فلا تبقي ولا تذر ؟ أ م هل تراه يبحث عن وسائل وطرائق لإيقافها أو لتجنب شرورها على أقل تقدير ؟ خاصة وهو يعتبرها عاملاً رئيسياً " في نشر الاستبداد وأكبر عقبة في سبيل إقامة نظام نتجنب فيه القوة غير المسوؤلة إلى أقصى حد ممكن؛ والقوة غير المسوؤلة هاهنا تشير إلى نوع من أنواع القوة تلجأ إليه الدولة لكي تحقق أغراضها من غير أن تشتط في استعمالها فتتحول إلى دولة مستبدة".[7]

وبالاستناد إلى ذلك فإن محاولة منع الحرب تمثل هدفاً سامياً بالنسبة لـــ "رسل" ، لأنها غاية بحد ذاتها، ولا غاية وراءها. لأن العالم إذ تحرّر يوماً من الحرب – في ظل أي نوع من الحكم، أو أي نظام اقتصادي كائناً ما كان– سيمكّن الإنسان من أن يختار حكامه اختياراً صحيحاً ،الأمر الذي لا يوفر مناخاً مناسباً لقيام الديكتاتوريات التي تساعد الحرب الحديثة على قيامها. فحين تنعدم إمكانية قيام الحروب يصبح أمام الإنسان متسعاً من الوقت لكي يفكر تفكيراً حراً في اختيار ممثليه اختياراً ديمقراطياً من غير أن يتأثر بعامل الخوف الذي يسيطر عليه في أوقات الحروب مما يجعله يقبلُ أي زعيم يملك أسباب القوة، تلك الأسباب التي تحوّل أفراد المجتمع إلى قطيع من الطائعين بعد أن تنتهي الحرب".[8]

---

[3]- المصدر السابق نفسه، ، ص 237. بتصرف .

[4]- برتراندرسل نحو عالم أفضل. ترجمة : دريني خشبة ، عبد الكريم أحمد .القاهرة : العالمية للطباعة والنشر، 1965، ص 64.

[5] - برتراندرسل – آمال جديدة في عالم متغير . ص173.

[6] - برتراندرسل – نحو عالم أفضل . ص 121 .

[7]- برتراندرسل. القوة . ترجمة : عبد الكريم أحمد . بيروت: مكتبة الأنجلو- المصرية ، 1973 . ص 231.

[8]- المصدر السابق نفسه . ص 231. بتصرف .

والحال ، إذ كانت الحرب تعبيراً عن نزعة فطرية عند الإنسان في رأي راسل فإن شطراً كبيراً من البشر سيميلون إلى الخصام أكثر مما يميلون إلى الألفة والمودة ، وهو ما لا يسمح لهم بأن يتعاونوا مع بعضهم لحل مشكلاتهم وتحسين ظروف حياتهم ، إلا في الأوقات التي يتوحّدون فيها لمجابهة عدوٍ مشتركٍ يهدد وجودهم واستقرارهم. فما علاقة تلك النزعة بالميل إلى التغلب والسلطان والسيطرة على الآخرين؟ وهل الحرب هي الوسيلة المثلى لتحقيق ذلك الميل؟ ثم هل الغاية من وراء قيام الحروب تحقيق سيادة الفرد أم سيادة المجتمع؟ وما الفارق بين تغليب مصلحة الفرد؛ الحاكم، على مصلحة المجتمع؟ تلك أسئلة سوف تحاول الدراسة تقديم إجابات عليها بما يتفق والسياق الفلسفي والمعرفي عند رسل.

3- الدوافع التي تقود إلى الحرب.

عندما تنشب الحروب يتضخّم سلطان الملوك والزعماء وتزداد سطوتهم لأن الشعب الذي يحتاج إلى قيادة موحدة خوف الهزيمة لا يشغل باله كثيراً بما يفعله الحكام حتى لو لم يتفق مع مصالحه وتطلعاته، مما يجعل هذه القيادة تنفذ الخطوات التي رسمتها لتعزيز سلطان الملك. الذي تكون الملكية دعامة حقيقية في تثبيت ملكه. فالحرب تقنع الجميع أن ما يربحونه تحت أمرة ملكهم أكثر بكثير مما يخسرونه، ولذا نراهم يخوضون غمار الحروب رافعين شعارات توحّد فيما بينهم، وتزكي فيهم نار العصبية والوطنية. الأمر الذي يساهم إلى حد بعيد في انتصارهم على من يعتبرون أعداءً لهم .

في ضوء ماسبق جاء تعريف رسل للفاتح الحقيقي الذي لا يستمد مكانته الرفيعة من الانتصار في الحروب أوالغزوات، ولا من الفتوحات الحربية الكبرى . وإنما من كون " الفاتحين في التاريخ هم الرجال الذين أسهموا بحق في تبديد الظلام في الداخل والخارج، أمثال بوذا وسقراط وأرخميدس، وغاليليه ونيوتن، وجميع من ساعدونا في السيطرة على أنفسنا وعلى الطبيعة.[9]

فالانتصارات التي يحصّلها القادة العسكريون باللجوء إلى أساليب القتل والتدمير والسيطرة، وتشريد سكان المدن المفتوحة، ليس لها في نظر راسل أي قيمة أخلاقية لأنها لاتقاس البتة بالقيمة التي يجب أن تمنح للعلماء والمكتشفين الذين أخضعوا الطبيعة لسيطرة الإنسان وسخروها لمنفعته وفائدته .

ولكن من أين يتأتّى للإنسان أن يغيّر النظرة إلى تلك المفاهيم المعرفية والقيم الأخلاقية –التي قد يفهم الناس دلالتها بشكل خاطئ في أغلب الأحيان – ما لم يهتم رجال التربية بالنزعات التدميرية العميقة في داخل الإنسان، تلك لتي تُفصِح عن نفسها بطرق وألوان شتى من الحرب مالم يتم تغيير اتجاهها في الطفولة . فالطبيعة البشرية قد تعبّر عن نفسها بصور و اتجاهات سليمة ونافعة فيما لو استطاعت التربية أن تقوم بوظيفتها على أكمل وجه. . ولكن الناس في الغالب لا يدركون تلك الحقيقة لاعتقادهم أن فطرة الإنسان تأخذ صورة واحدة لا يمكن تبديلها. وفي هذا السياق يقول رسل: "يمكنك أن تقارن الكلب الأليف بذئب في الغابة، لتلاحظ القدرة على الترويض، والترويض هنا عند الحيوان يقابل التربية عند الإنسان، فالكلب الأليف يعيش بسهولة، ينبح من آن لآخر، وقد يعضّ ساعي البريد، ولكنه على الإجمال ميسور المعاشرة، أما الذئب فله قصة أخرى، ويمكن الوصول إلى النتيجة نفسها مع الإنسان إذ يمكن أن تتبدل طبيعته تماماً تبعاً لأساليب المعالجة. والفكرة التي تقول : إنه لا يمكن تغيير الطبيعة الإنسانية فكرة حمقاء".[10]

---

[9]– برتراندرسل. في التربية. ترجمة : سمير عبده ، بيروت : دار مكتبة الحياة، ص 184.

[10] – برتراندرسل. العالم في مفهوم برتراندرسل. ترجمة : شفيق أرناؤوط ، دار الاتحاد، 1963. ص 37–38.

فبمقتضى ما يراه رسل كان من الممكن للبشرية أن تتجنّب الحروب والانقسامات والدمار الذي حلّ بالعالم لو كان اهتمامها جدياً بتهذيب نزعات الإنسان وتوجيهها توجيهاً ملائماً بما يضمن عدم استعباد الآخرين وقهرهم عن طريق الموازنة بين الرغبات التي تتصارع في أعماق الإنسان بالاستعانة بتربية علمية مناسبة تعزّز الوصول إلى الأهداف المنوطة بها من خلال التعليم الذي يجب أن " يغذي الرغبة في الوصول إلى الحقيقة ، لا الإيمان بأن عقيدة معينة هي الحقيقة."[11]

هذا وعلى الرغم من اعتراف راسل بضرورة منع الأسباب المُوجِبة للحروب، خاصة تلك التي تتصل بالنزعة الفطرية عند الإنسان، إلا أنه يرى أن من بين تلك الحروب ما يمكن أن نسميه (حروب عادلة) يضطر البشر للقيام بها من أجل رد التسلط والاعتداء الذي يتهددهم من أعدائهم الذين يملكون . والمقصود بـــ"عادلة هنا" كل مقاومة لغاز، وهكذا كان للإنكليز الحق في مقاومة (الأرمادا)* الأسباني، مثلما كان للمجرمين الحق في النضال من أجل حريتهم".[12]

فمقاومة الاعتداء والظلم دفاعاً عن كيان الإنسان وكرامته مشروعة في نظر رسل ،بينما الاعتداء ذاته الذي ينطلق من نزعة السيطرة والاستيلاء على ممتلكات الآخرين واغتصاب حقوقهم هو ماكان ينتقده راسل ويستهجنه . ففي الوقت الذي تعد الحالة الأولى مشروعة ومبررة لأنها تعبر عن وضع دفاعي يسعى إلى مواجهة كل ما يسلب الذات الإنسانية جوهرها الحقيقي. تعد الحالة الثانية تعبيراً عن إرادة قوة يسعى من يمتلكها إلى قهر الآخرين، وإذلالهم. بحيث تنطق القوة بلسان التخويف والاستعباد لا بلسان الألفة والمحبة. "فمعظم الذين يشعرون بأنهم أقوياء القوة الكافية يشرعون في العمل على جعل أنفسهم أكثر مخافة، لا أكثر محبة، والرغبة في كسب الرأي الطيب مقصورة عادة على هؤلاء الذين لم يحصلوا على سلطان مضمون. أما النزعة إلى الشجار والاعتداد بالذات، والالتذاذ بتحقيق رغائب النفس... هذه النزعة نفسها أكثر من أي حافز من حوافز المنفعة الذاتية هي التي تؤدي إلى الحرب".[13]

إن الحرب ، وفق هذا المعنى ، مرفوضة من وجهة نظر "رسل" لأنها تمثّل شكلاً من أشكال الاعتداء على ممتلكات الآخرين دون وجه حق. كما أنها تعبير مباشر وعلني عن حجم القوة التي تمتلكها الدول أو الأفراد ،الأمر الذي يدفعُ بهم لشن الحروب بغية تحقيق نوازعهم التدميرية.

فالحرب تخلُق أبشع أنواع السلطان، الذي هو سلطان الدولة. لأن "موقف الدولة متناقض من حيث نظرتها إلى مواطنيها من جهة. ونظرتها إلى مواطني الدول الأخرى من جهة ثانية. فهي تنزل أصرم القصاص، وبلا محاباة بأولئك الذين يقتلون أخوانهم في الوطن، وبأولئك الذين يرفضون قتل الأجانب على السواء. ففي أثناء الحرب يصبح الامتناع عن قتل الآخر، الذي ينتمي إلى دولة أخرى جريمة كبرى لا تغتفر أبداً ".[14]

---

* الارمادا : أسطول اسبانيا الذي أغرقته البحرية الانكليزية في القرن السابع عشر .

[11] – . نحو عالم أفضل . مصدر سبق ذكره .ص 119.

[12] – انظر العالم في مفهوم برتراندرسل ، مصدر سابق ص38 .

[13]– برتراندرسل، نحو عالم أفضل، ص 86.

[14]– المصدر السابق نفسه، ص 42–43.

4- رسل ورفضه للحرب.

إن "رسل" يرفض الحرب مهما كانت الأسباب والمبررات التي تقف خلفها، لأن قتل الإنسان مرفوض بكل القيم والشرائع والأديان ، وسلوك الحرب ليس إلا سلوكاً همجياً يَجُبّ كل تحضر ومدنيةً. والإنسان المتمدن لا يتوجّب عليه أن يصرف جُلَّ وقته في إنتاج أسلحة الدمار والفتك من أجل السيطرة على الشعوب والأمم التي تمتلك قدراً أقل من القوة، وإنما يتوجّب عليه أن يحوّل جهوده إلى إبداع ما يفيد الإنسان في حياته ويجعله أكثر سعادة ورفاهية. "فالمهارة العلمية الضخمة التي استنفذت في إنتاج الأسلحة النووية كانت كفيلة بتحويل الصحارى إلى جنات مثمرة، وبإنزال المطر على الصحراء الكبرى وصحراء جوبي".[15]

أي أن راسل قد أدرك كم من الطاقات الإنسانية والمشاريع النافعة سوف تظهر وتفصح عن نفسها عندما يزول عامل الخوف من قيام الحرب ونشوبها . لأن الحرب تمنع الروح الإنسانية من الإبداع والتعبير عن نفسه من خلال نشاط خلاق ومبدع يفصح عن ذاته حينما تتلاشى المخاوف من قيام الحروب ويحل محلها شعور الطمأنينة والشعور بالسلام، لأنه إذا كان بالإمكان التحكم بعوامل نشوب الحرب بين الأمم والدول فليس بالإمكان إيقافها والتحكم بمسارها .فالعالم الذي يبتكر الأدوات والأسلحة لقتل الآخرين سيكون آجلاً أو عاجلاً ضحية سلاح يخترعه الآخر الذي سيرد بحرب رادعة. فالقوة لا بد أن تصطدم بالقوة حتى تسود إحداهما، ويسيطر القوي على الضعيف، طالما أنه ليس هناك من حكومة أو دولة، أو هيئة عالمية تمنع أسباب الصدام الذي سيفضي بشكل حتمي إلى قيام الحروب. ولكن هذه الحكومات أو الدول التي ينبغي أن تمنع قيام الحروب تختلف عن الأنظمة الاستبدادية والديكتاتورية التي تعمل على قهر الإنسان ليسهل بقاؤها واستمرارها ما بقيت نزعة الإنسان إلى الحرب قائمة. لأنه مع تقدم أساليب القتل يصبح بإمكان أية حكومة تعتمد على الشرطة والقوات المسلحة أن تُخضع مواطنيها بقوة السلاح لإرادتها. وحين تستشعر تذمراً داخلياً وحركة مقاومة شعبية فإنها تفتح أبواب الحرب في وجه البلدان الأخرى وتنفخ بوق العصبية والقومية والوطنية، فيهب الأفراد للذود عن بلادهم ،الأمر الذي يطيل أعمار هذه الأنظمة ما دامت أسباب الحرب قائمة. فالديكتاتوريات التي تعتمد العلوم الحديثة في حياتها تستطيع أن تقمع أية محاولة ثورية ينهض بها الشعب من خلال امتلاكها الوسائل الرادعة الكفيلة بذلك من جهة، وبتوزيع الامتيازات على الشرطة والقوات المسلحة من جهة أخرى لتضمن ولاءهما الدائم".[16]

فعادة تلجأ الأمم –ممثلة بحكوماتها، ومن يملكون أدوات السيطرة والقوة– إلى الدفاع عن نظرية براغماتية عن مفهوم الحق ترتبط بشكل جوهري بإرادة القوة بحيث يكون الحق انعكاساً لمقدار القوة التي يمتلكها كل من الأطراف المتصارعة. الأمر الذي يجعل أية تسوية عادلة للمنازعات غير ممكنة من غير انتهاء الحروب بين الطرفين حتى نقرر المعنى العميق لمفهوم الحق الذي يتوقف على إرادة المنتصر دوماً.

فالدول الضعيفة التي لا تملك أسباب القوة يختلف مفهوم الحق لديها عنه لدى الدول القوية. لذلك كان من الضروري والحال هذه قيام قوة دولية ذات كفاءة من الرأي العام العالمي مؤسسة على تقدير الصواب والخطأ في المنازعات بعيداً عن قوة الدول وضعفها، ومفهومها البراغماتي عن الحق، الأمر الذي يجعل بمقدورها حل جميع المنازعات القائمة باللجوء إلى الوسائل السليمة، والوقوف في وجه قيام الحرب. ويبدو أن ذلك لن يكون ممكناً دون امتلاك معيار دقيق عن العدالة التي يفترض أنها لا ترتبط بأي شكل من الأشكال بمعيار القوة، أو الحق الذي

---

[15]– برتراندرسل. صور من الذاكرة. ترجمة : أحمد 'إبراهيم الشريف، بيروت: دار الفكر العربي ، 1973، ص 360.

[16]– برتراندرسل. أثر العلم في المجتمع. ترجمة : تمام حسان. القاهرة : مكتبة النهضة ، 1960، ص 13 بتصرف.

يتطلب القوة.لا بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً، فمفهوم "العدالة الذي يهدف إلى إعطاء كل ذي حق حقه لابد أن يفضي بالضرورة إلى استخدام قسمة عادلة للقوة على الأفراد من خلال توزيعها بشكل مناسب . لأن العدالة من غير قوة تصونها ستتحول حتما إلى طغيان واستبداد ."[17] وكذلك هو حال الحق كما يرى راسل : لأن الصراع بين الحق والقوة سيفضي إلى هزيمة الحق مالم يملك صاحبه من القوة ما يوازي القوة الأخرى ويتفوق عليها ."[18]

فالوقوف على مفهوم نظري للعدالة يمكن أن يكون متعيناً في الواقع، هو عند رسل، ضمانة حقيقية لحياة مشتركة بين الأفراد من جهة، وبين الدول بعضها مع بعض من جهة ثانية ، بحيث تبقى النوايا الطيبة رهينة أولئك الذين لا يملكون من أسباب القوة شيئا ، في مقابل من يملكون القوة وأسباب النصر من غير أن يهتموا البتة بالأخلاق وما يدور في إطارها.

وهكذا نلاحظ أن المذاهب والعقائد تسود في مجتمع ما وتنتشر بما يتناسب وقوة المفاهيم النظرية المؤسسة لها ، بحيث تمارس تلك المفاهيم وظيفتين متناقضتين في الوقت ذاته؛ وظيفة إيجابية تتجلى في رفض أسباب الحرب وعواملها والوقوف في وجهها من جهة ، ووظيفة سلبية تكمن في خلق جميع مبررات قيامها والاستعداد لها من جهة أخرى ، ليأتي على رأس هذه الأسباب مبدأ التعصب الذي يفضي بالفرد، أو الدولة لأن يريا في الآخر عدواً لهما،الأمر الذي يُوجِب عليهما محاربته عندما يمتلكا من وسائل القوة ما يجعل حربه ممكنة.

ولكن أليس الانحياز للحق – وهو ما يختلف من شخص إلى آخر ومن مذهب إلى آخر – واستخدام القوة من أجل الدفاع عنه هو انتهاك صريح للعدالة ذاتها مادمنا لانستطيع أن نمنع القوة من أن تتحوّل إلى استبداد وتسلط عندما تتوفر الشروط اللازمة ؟ لأنه حتى لو كان بمقدورنا أن نفعل ذلك فثمة مايغرينا بأن نمضي مع القوة حتى وجهتها الخيرة ، وهو ما يعني أن لا سبيل لإيقاف القوة وكبحها نهائياً .

وبناء على هذا ليس بمستغرب أن نجد "رسل" ينظر إلى المذهب الشيوعي الذي أسسه لينين على أنه مذهب مُؤسس على الحقد الخالص. وهو مادعاه إلى القول: بأن الحقد لايصلح لكي يكون أساساً لأي إصلاح اجتماعي. وقد عبر عن ذلك بشكل متطرف حين قال : كان "لينين" ورفاقه قبل الثورة يصبون حقدهم على أعدائهم من الإقطاعيين والبرجوازيين، وعلى كل ما يعترض الثورة الشيوعية، فلما تحقق لهم الاستيلاء على زمام الحكم، وتصفية بواعث حقدهم القديم كان طبيعياً أن يبحثوا عن أشياء أخرى جديدة يصبون عليها حقدهم الأسود الذي أصبح جزءً لا يتجزأ من تركيب جهازهم النفسي.[(19)]

ولكن هجومه العنيف لم يتوقف عند المذهب الشيوعي فقط، وإنما امتد ليشمل كل المذاهب الأخرى التي قد يستشف منها نزعة لتدمير الآخر وامتلاكها مفهوماً خاطئاً عن الحق. ينتج مفهوما للعدالة يتطابق معه ويساويه ، وهو ما يعني إلحاق الأذى والضرر بالآخرين . لذلك نراه يدعو إلى تجاوز تلك الأنظمة والمذاهب إلى ما هو أكثر تسامحاً وحرية وعدالة منها، وهذا مالم يبدُ له ممكناً باللجوء إلى الحرب وسيلة لذلك، لأننا –كما يرى "راسل"– إذ نفعل ذلك نكون أكثر همجية من الأنظمة التي نسعى لتجاوزها.

غير أن راسل وعلى الرغم من كرهه للينين وللشيوعية على حد سواء ، فقد رفض أن تكون الحرب هي الوسيلة التي يتوجب على العالم الغربي أن يرد بها هجوم الشيوعيين قائلا: "ليست الحرب إذاً هي الطريقة الصحيحة

---

[17] – نحو عالم أفضل . مصدر سابق . ص55 .

[18] – المصدر السابق نفسه . ص56 بتصرف.

[19]– رمسيس عوض. برتراندرسل الإنسان. بيروت : الجامعة الأمريكية ، 1975 ص 13.

لمكافحة الشيوعية. وإنما يكون ذلك عن طريق تقليل الأسباب المؤدية إلى إشاعة روح التذمر وعدم الرضا في البلدان المتخلفة اقتصادياً من العالم غير الشيوعي. ففي معظم دول آسيا يسود الفقر المدقع. ومن واجب الغرب أن يعمل على التخفيف من وطأة هذه الحالة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، تضاف إلى ذلك ضرورة معالجة روح المرارة بمزيج من الصبر واللباقة من جهة ، والسياسة من جهة ".[20] وهو عين مانطالب به اليوم في سياساتنا وحواراتنا مع أمريكا والغرب حينما نقول لهم : لن يتسنى لكم حل مشاكل المنطقة عن طريق الحرب والعنف نهائياً ، وإنما عن طريق إزالة الأسباب التي أدت إلى ذلك .

وبالاستناد إلى ذلك يتوجب من وجهة نظر رسل أن لا نواجه الحقد بالحقد، بل يجب أن نقلل من العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية التي تغذي عقائد التعصب والكراهية، تلك التي تنظر إلى الآخر على أنه أقل إنسانية، وتتحين الفرص المناسبة لإفنائه والسيطرة عليه حينما تتهيأ لها أسباب القوة. كما يجب علينا ألا ننتظر حتى تتهيأ للحروب جميع المبررات والأسباب والعوامل النفسية التي تجعل من قيامها أمراً محتماً. وإنما نسعى لتربية الأفراد والمجتمعات على احترام الآخر، وتبادل الرأي، وإشاعة مناخ الديمقراطية بين الأفراد من جهة، والدول والبلدان من جهة أخرى.

الخاتمة :

في ضوء الأفكار و الآراء التي عرضناها لراسل نلاحظ أنه يميل إلى القول بضرورة أن لانواجه الحقد بالحقد ، والتعصب بالتعصب ، لأن من شأن ذلك أن يشعل فتيل الحروب بين الدول و الأمم لامحالة ، مادامت كل دولة تجد لديها من القوة والسلطان ما يغذي أحقادها وضغائنها تجاه الدول الأخرى ، ولذلك نراه يدعو إلى الاهتمام بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تغذي عقائد الكراهية والتعصب التي قد تقود لقيام الحروب واشتعال نيرانها ، وإيجاد بالتالي سبل مناسبة لإزالة كل مامن شانه أن يكون سبباً لقيام الحروب واشتعالها .

ومن هنا نراه لايتوقف عند مهاجمة الشيوعية كنظام منتج للحقد والتعصب على وفق رأيه فحسب، ولكنه ينتقد أيضاً العالم الرأسمالي الذي ينتمي إليه كذلك ، لأنه وجد في نظام الأجور الذي يطبقه ذلك المجتمع الرأسمالي وحشا ينهش جسد العالم . ولذلك لابد من استبداله بنظام آخر يقضي على تلك الدوافع التي تترك قلة من الأفراد يسيطرون على الأغلبية ، واستبداله بنظام يحطم طغيان صاحب العمل ويجعل العمال آمنين من الحرمان ، وقادرين على إيجاد مجال لإبداعهم الشخصي ، وهو مالا نجده إلا في الديمقراطية التي تكفل للبشر إلى حد بعيد حرياتهم وكرامتهم ، وتجنب البشر مساوئ النظامين ؛ الشيوعي والرأسمالي على السواء .

غير أن المتابع لأفكار راسل والمضطلع على المراحل الفكرية التي مر بها لابد أن يلاحظ تغير وجهة نظره حول فكرة الحرب ذاتها من مرحلة إلى أخرى . فبعد أن كان قد رأى في الرأسمالية والشيوعية ما يشجع على الحرب ، عاد مرة أخرى وفي مناسبات مختلفة ليؤكد بأن القتال والحرب شيء مـــألوف ومعتاد ، فالحروب نشأت قبل الرأسمالية بفترة طويلة جداً .لأن الإنسان بطبيعته متنافس ومحب للتملك ، ومحب للقتال ، وأغلب الناس بطبيعتهم يفترضون أن لهم أعداء ، ويشعرون أنهم يعبّرون عن هذه الطبيعة حينما ينازعون هؤلاء الأعداء .

---

[20]– برتراندرسل وآخرون. الماركسية في أبعادها المختلفة. تعريب: أحمد عبد السلام الكرداني ، محمد أحمد الغمراوي . القاهرة : مكتبـــة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1970 ، ص 14.

المراجع:

1- رسل ، برتراند. أثر العلم في المجتمع . ترجمة: تمام حسان، القاهرة: مكتبة النهضة، 1960.
2- رسل، برتراند . صور من الذاكرة . ترجمة : أحمد إبراهيم الشريف ،مراجعة : زكي نجيب محمود . دار الفكر العربي، 1963 .
3- رسل ، برتراند. طرق إلى الحرية. ترجمة:عبد الكريم أحمد ، القاهرة: مطبعة الصاوي ، ب.ت .
4- رسل ، برتراند. العالم في مفهوم برتراندرسل.ترجمة : شفيق أرناؤوط ، دار الاتحاد، 1963.
5- رسل ، برتراند. في التربية. ترجمة: سمير عبده ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ب. ت .
6- رسل ، برتراند. القوة . ترجمة : عبد الكريم أحمد، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ، ب- ت.
7- رسل ، برتراند .نحو عالم أفضل .ترجمة ومراجعة : دريني خشبة ، عبد الكريم أحمد . القاهرة : العالمية للطباعة والنشر ، 1965.
8- برتراندرسل وآخرون. الماركسية في أبعادها المختلفة. تعريب أحمد عبد السلام الكرداني ، محمد أحمد الغمراوي ، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ، 1970.
9- عوض، رمسيس. برتراندرسل الإنسان. بيروت : الجامعة الأمريكية ، 1975.